أسلوب النِّداء في شرح السِّيرافيّ على كتاب سيبويه قراءة في ضوء نظريَّة التَّواصل اللِّساني

أ.د. بشرى محمد طه البشير
الجامعة المستنصريَّة/ كلية التربيَّة

م.م علي جواد الذبحاويّ
الجامعة المستنصريَّة/ كلية التربيَّة
BMTAL 1954@JMAIL.COM

ملخص البحث

النِّداء خطابٌ كثير الدَّوران في كلام العرب، إذ يستعمل في أوَّل كلِّ كلام لِعطف المُخَاطَب على المُتَكَلِّم، وتكون البنيَّة التَّركيبيَّة للنداء من مُتَكَلِّم وهو الذي يرسل أصواتاً تدلّ على النِّداء ومخاطَب وهو المُنادى الذي يُطلب منه الإقبال، وللنداء أهميَّة بالغة في التَّركيب اللُّغوي، وتكمن أهميته في عملية التَّواصل بين البشر، لأنَّ التَّواصل لا يتمُّ إلا عبر أدوات التَّخَاطُب، والنِّداء؛ فالمُتَكَلِّم وهو المُنادي الذّي يرسل الرِّسالة اللُّغويَّة، وهذه الرِّسالة تنتقل عبر الهواء إلى المُنادَى أي المُخَاطَب، الذّي بدوره يَتَنَبَّه ويلتفت إلى المُتَكَلِّم لِيُقْبِل عليه. يقوم هذا البحث على تناول أسلوب النداء بكونه أداة للتواصل اللساني في شرح كتاب سيبويه للسيرافي (368هـ) ومعرفة رؤيته المنبثقة عن رؤية سيبويه للأساليب العربية.

الكلمات المفتاحية: النداء، السيرافي، التواصل

Abstract

The call is a lot of speech in the words of the Arabs, as it is used in the first words of all the affection of the address to the speaker, and the structural structure of the call of the speaker is the one who sends votes indicate the appeal and address is a call to ask the turnout, and the appeal is very important in the syntax, The process of communication between people, because communication is not only through the tools of communication, and appeal; the speaker is the caller who sends the language message, and this message transmitted through the air to the caller any address, which in turn predicts E and pay attention to the speaker to accept it. This research is based on the approach of the appeal method as a tool for linguistic communication in explaining the book Sebwayh of Serafy (368 e) and knowledge of his vision emanating from the vision of Sebwayh of Arabic methods.

Keywords: call, seraph, communication

المقدّمة:

النِّداء في اصطلاح النُّحاة ((تنبيه المدعو لِيقبل عليك))[1]، أو ((التصويت بالمنادى ليعطف على المُنادي))[2]، فالنِّداء خطابٌ كثير الدَّوران في كلام العرب، إذ يستعمل في أوَّل كلِّ كلام لِعطف المُخَاطَب على المُتَكَلِّم، وتكون البنية التَّركيبيَّة للنداء من مُتَكَلِّم وهو الذي يرسل أصواتاً تدلّ على النِّداء ومخاطَب وهو المُنادى الذي يُطلب منه الإقبال، وللنداء أهميَّة بالغة في التَّركيب اللُّغوي، وتكمن أهميته في عملية التَّواصل بين البشر، لأنَّ التَّواصل لا يتمُّ إلا عبر أدوات التَّخَاطُب، والنِّداء؛ فالمُتَكَلِّم وهو المُنادي الذّي يرسل الرِّسالة اللُّغويَّة، وهذه الرِّسالة تنتقل عبر الهواء إلى المُنادَى أي المُخَاطَب، الذّي بدوره يَتَنَبَّه ويلتفت إلى المُتَكَلِّم لِيُقْبِل عليه.

أوَّل ما يطالعنا في باب النِّداء عند السِّيرافيّ أنّه يُمَثِّلُ باباً مستقلاً بنفسه يختلف عن غيره، إذ أثبت أنّ النِّداء أسلوبٌ طلبيّ محضّ خالص لطلب أو إيقاع عمل من لدن عامل له، فقال: ((باب النداء مخالف لغيره من الألفاظ، وذلك لأنّ الألفاظ في الأغلب إنما هي عبارات عن أشياء غيرها من الأعمال، أو أشياء غيرها من الألفاظ، كقولك: أكرمت زيداً، وقال زيدٌ قولاً جميلاً. ولفظ النداء لا يعبّر به عن شيء آخر، وإنما هو لفظ مجراه مجرى عمل يعمله عامل))[3].

ومن ثَمَّ يواصل السِّيرافيّ عرضَ رؤيته المنبثقة عن رؤية سيبويه، فيقول: ((جعلوا المنادى بمنزلة المفعول به وجعلوا الأصل في كل منادى النصب... وقد ذكروا أنَّ ما يقدر ناصباً هو (أدعو) أو (أُنادي)، ولكن ذلك على جهة التمثيل والتقريب؛ لأنّهم أجمعوا أنّ النداء ليس بخبر))[4]. فالنِّداء كما يراه السِّيرافيّ أسلوبي طلبيّ لا نسبة واقعية له في الخارج وهو لا يمكن أنْ يكون إخباراً بل هو فعل (طلب) من أفعال الكلام(speech act)، والفعل الكلاميّ هو ((كلُّ ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تاثيري... لتحقيق أغراض إنجازات وغايات تأثيرية تَخُصُّ ردود فعل المتلقي(كالرفض والقبول). ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المُخَاطَب، اجتماعيا أو مؤسساتياً، ومن ثَمَّ إنجاز شيء ما))[5].

فكأنِّي بعبارة السِّيرافيّ (لفظ مجراه مجرى عمل يعمله عامل) ترجمة عربيّة حرفيّة لعنوان كتاب وضعه الفيلسوف اللُّغويّ((أوستن)) مؤسِساً به لمفهوم الأفعال الكلاميَّة في اللِّسانيات الحديثة وهو (How to do thing with words)، أمَّا الدّكتور خالد ميلاد فقد وصف النِّداء بأنَّه (إنشاء إيقاعيّ) ويقصد به أنَّه إيقاع للفعل باللفظ عن طريق حرف النِّداء المختصّ دلالياً بالنيابة عن فعل النِّداء أدعو، أو أريد؛ فالمُتَكَلِّم إذا قال: (يا عبد الله) فقد أوقع فعل نداء المُخَاطَب بإنشائه لفعل التَّلَفُّظ بـ (يا)، وانتصب المُنَادى على أنَّه مفعول به لوقوع فعل النِّداء عليه[6]. فالنِّداء ((فِعْلٌ يُقْصَد به في التقدير إلى المنادى الغافل عنك، فَتَخُصّه لتعطفه على نفسك وكلامِك له))[7]. فأسلوب النِّداء ينجزه المُتَكَلِّم ويقع فعل تأثيره على مُخَاطَب ذي هيئة مخصوصة هي (الغفلة) وهذا ما لا نجده في أساليب الطَّلب الأُخرى كالامر والنَّهيّ والاستفهام؛ إذ يُنشِئ المُتَكَلِّم فعلَ النِّداء بواسطة التَّلَفُّظ بأصوات النِّداء، ومن هنا تأتي أهميَّة النِّداء في عملية التَّواصل؛ لأنَّ النِّداء يكون من مُتَكَلِّم يرسل أصواتاً تدلُّ على النِّداء مثل (يا) وبقية أخواتها، ومُخَاطَب يكون المُنَادَى الذي خصَّه المُتَكَلِّم بتلك الأصوات، وانتقالها عبر الهواء إلى أذنه[8]. ولهذا جعل السِّيرافيّ أدوات النِّداءَ ضرباً من الأصوات أو ما يشابهها، يقول السِّيرافيّ: ((وهي أنّ نداءك المنادى إنما هو صوتٌ تصوّتُ به لتتبهه إليك وهو بمنزلة الأصوات التي تقع للزجر، كقولك للغراب: (غاق) وللبغل: (عدس)، قال الشاعر:

عَدَسْ مَا لعبّادٍ عَلَيْكِ إمارةٌ نَجَوْتِ وَهذا تَحْمِلينَ طليقُ [9]

فشبَّه لفظ المنادى بالأصوات التي يُزْجَرُ بها؛ لأنّه لا يقع إلا لعطف المنادَى على المنادي كما تقع الأصوات لدعاء البهائم وزجرها))[10].

ولم يغب عن بال النُّحاة أنّ أدوات النِّداء تعتمد الصَّوتَ بالأساس، إذ أشار الرَّضي أيضاً إلى أنَّ المُتَكَلِّم يقول في نداء البعيد وفي النُّدْبَة (يا زيداه) عامداً إلى دعم الجانب الصَّوتيّ المُتَحَقِق بالياء وبألف وهاء بعد المُنادى[11]، والألف المفردة حرف يُنَادَى بها القريب، وقد تُمَدُّ حَرَكَتُهَا فتصبح (آ)، ومثلها (أي) في قبول مدِّ الحركة فتصبح (أيا)، فجميع حروف النِّداء تكون قابلة لمدِّ الصَّوت، فإذا كان المُخَاطَب قريباً أو بعيداً ناديته بـ(يا)، وأما (أيا، وهيا) فلا يكونان إلا للنائم والمُسْتَثْقِل والمُتَرَاخِي عنك لما فيها من مدٍّ صوتيّ[12].

والمُلاحَظ أنَّ حروف النِّداء تتأسَّس على أصوات لا تخرج عن الياء والفتحة الطَّويلة أو القصيرة، وهي أصوات عمادُها القوة والجهر، فهي من قبيل الدَّعم الصَّوتيّ لما يقتضيه بلوغ النِّداء السامع ليتخذ منه مخاطباً يتواصل معه[13].

إنَّ توزيع أدوات النِّداء بحسب مقتضى حال المُنَادَى أو هيئته على وفق المقام أو الموقف التَّواصليّ يبين مدى نباهة العرب القُدَامَى لهذا الأسلوب ووظيفته التَّواصليَّة، فنداء القريب يكون بالهمزة (الخالية من المدّ) لتناسب حال

المُخَاطَب وموقعه في مقام القُرْب، وللمنادى البعيد أو شبهه أدوات مشتملة على حروف المدّ؛ لأَنَّ البعيد يحتاج إلى مدّ الصوت ليسمعه المُخَاطَب حتى يقع التَّواصل بين طرفي الرِّسالة اللُّغوية في موقف تواصليّ معيَّن(14).

وفي حديث السِّيرافيّ عن النِّداء بكونه أسلوباً طلبيّاً، وعن المنادى وحالته وما يتعلَّق به من أبواب أخرى كالنُّدْبَة والتَّفَجُع والاختصاص تتضح لنا الوظائف التَّواصليَّة بشكلٍ جلي؛ لأَنَّ النِّداء كما ذكرنا يعتمد على ركنين أساسيين من أركان التَّواصل هما المُتَكَلِّم والمُخَاطَب؛ لأَنَّ الجملة النِّدائيَّة لها أهميَّة خاصَّة في العملية التَّواصليَّة بوصفها وحدة قاعدية في الخِطَابَيْن الشَّفويّ والكتابيّ، إذ تَتَمتَّع بنية النِّداء بالقدرة على التَّعبير عن مختلف الأغراض والمشاعر الإنسانيَّة، فهو بأشكاله المختلفة وأساليبه المتنوعة يمثل أبرز أدوات التَّخَاطُب الخاصَّة بالتَّواصل(15).

وقُسِّم المُنَادَى على ثلاثة أقسام: المُفْرَد، والمُضَاف، والشَّبيه بالمُضَاف، وقُسِّم المُفْرَد على ضربين: معرفة ونكرة، والمفرد المعرفة على ضربين أحدهما: ما كان اسماً علماً قبل دخول النِّداء، نحو: زيد وعمرو، والآخر: نكرة تُعرَّف بدخول النِّداء، نحو: يا رجل أقبل، وهو ما سُمِّي بالمُنَادَى النَّكرة المقصودة(16).

وعندما أراد السِّيرافيّ تبيان علة بناء الاسم المفرد المعرفة كشف لنا عن إشارات تواصليَّة لطيفة مُسْتَقَاة من المُنَادَى والمُنَادِي، فقال: ((فأمّا الاسم المنادى المفرد المعرفة فإنه يستحق البناء على حركةٍ، ويجب أنْ تكون تلك الحركة ضمة. فأمّا الدليل على أنّه يجب بناؤه فهو أنّ المنادى مخاطب، والنداء حال خطاب، والدليل على ذلك أنّ رجلاً لو قال: "والله لا خاطبت زيداً"، ثم قال له "يا زيد"، كان حانثاً وكان هذا منه خطاباً، وأسماء المُخَاطَب تقع مكنية في الخطاب، فكان ينبغي أنْ يكون مكان الاسم المنادى مكنيّ، غير أنّ المنادِي إذا أراد أنْ ينادي واحداً من جماعةٍ ليعطفه عليه حتى يصغي إليه، فلابدّ من ذكر اسمه الظاهر الذي يخصه دون غيره، إذْ كانت الكنايات يشترك هو فيها والذي معه فلما احتيج إلى الاسم الظاهر لهذه الضرورة التي ذكرنا؛ وكان الموضع موضع كنايةٍ وجب أنْ يبنى لما صار إليه من مشاركة المكني الذي يجب بناؤه؛ لأنّ الأسماء إنما تبنى على حسب وقوعها موقع المبينات، والدليل على ذلك أنّ من العرب من ينادي صاحبه إذا كان مقبلاً عليه أو ذكر من حاله ما لا يلتبس نداؤه بالمكني بغيره، فيكنى عن اسمه الظاهر فيقول: "يا أنت" و"يا إياك"))(17).

من هذا النَّصّ نستشف الآتي:

1. قَرَن السِّيرافيّ بين وجوب بناء المُنَادَى وبين حالة المُنَادَى؛ لأنّ النِّداء خطاب يدور بين عنصرين هما مُتَكَلِّم ومُخَاطَب، والمُنَادَى يقع موقع ضمير المُخَاطَب.

2. ينادي المُتَكَلِّمُ المُخَاطَبَ بالضَّمير شريطة أن يكون مقتضى حال المُخَاطَب مُمَثَّلاً في هيئة أو حالة مُلبِسة بغيره كأنْ يكون المُنَادَى مثلاً بين جماعة من أقرانه كما أشار إلى ذلك السِّيرافي في قوله ((ينادي واحداً من جماعة))، فإذا قال (يا أنت) مثلاً التبس عليه، ولم تتمّ الفائدة ولم يحصل التَّواصل والتَّأثُر والتَّأثير بينهما؛ لأَنَّ غاية النِّداء أنْ تُنَادي المُخَاطَب فينتبه إليك ويعرف نفسه هو المقصود بالنِّداء.

3. والحال هذه تحتاج إلى ذكر الاسم الظاهر المعروف للمُخَاطَب، ومن ثَمَّ احتل المُنَادَى منزلتين إحداهما: الضَّمير وهو الأصل في مقام النِّداء (خاصّةً) وواقعه الخطاب عامَّة، إذ تقتضي هذه الواقعة ومقامها معرفة الطَّرف الأَوَّل بالطَّرف الثَّانيّ المُخَاطَب بالمُخَاطَبين فالمُخَاطَب (المُنَادَى) معروف ولا حاجة إلى ذكر اسمه، ويكتفي بضميره المُكنى عنه، والأخرى: الاسم المعرفة (العلم) إذا كان المُخَاطَب كما أسلفنا في حالٍ مُلْبِسٍ، فيُدْفَع اللَّبسُ وتَتَحقَّق الوظيفة التَّواصليَّة من النِّداء باستعمال الاسم العلم.

4. إذا زال اللبس وأمن التواصل بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب في النداء، كأن يكون قريباً أو في حال مُشَاهَدَة أو يكون على هيئة مخصوصة تميزه من غيره رجعنا إلى الضمير.

5. وفي مقطع من نصِّ السِّيرافي السَّالف الذِّكر نتوقف على قوله ((... أنَّ رجلا لو قال ((والله لا خاطبت زيداً)) ثم قال له ((يازيد)) كان حانثاً وكان هذا منه خطاباً)) إنَّ السِّيرافيّ يشير إلى أنَّ نجاح التَّواصل وتحقيق وظائفه مرهونٌ بصدق المُتَكَلِّم في كلامه وحواره مع الطَّرف الآخر (المُخَاطَب)، فالرَّجُل الذَّي أقسم على أن لا يخاطب زيداً ثُمَّ ناداه ليخاطبه يكون قد كذب في كلامه وحَنَثَ في قَسَمِه فيُعَدّ كما قال السِّيرافيّ حانثاً، والحِنْثُ في القَسَم إثمٌ كما هو معروف ممَّا يؤدِّي إلى فشل عملية التَّواصل اللِّسانيّ بين المُتَخَاطِبِين.

ونمضي مع السِّيرافيّ لمعرفة حقيقة الأسماء المُنَادَاة وأثرها في التَّواصل بين المُتَخَاطِبِين، وذلك في حديثه عن النَّكِرة المَقْصُودَة، فقال : ((إنّ المفرد يؤثر فيه النداء حتى يكون معرفة به، كقولك "يا رَجُلُ" إذا قصدت واحداً بعينه صار معروفاً بالنداء، لإقبالك عليه وقصدك إياه بحرف النداء كما قال الأعشى:

قالت هُرَيْرةُ لَمَّا جِئْتُ زائِرَهَا وَيلْي عَلَيْك وَوَيلي مِنْكَ يَا رَجُلُ[18]

وإنما قصدت قصده))[19].

فالنَّكرة المقصودة نكرة في الأصل إلا أنَّها تتعرَّف بالنِّداء، وهذا ما جعل سيبويه يذهب إلى عدم جواز دخول الألف واللام عليها، فقال : ((إنّ الألف واللام إنما منعهما أنْ يدخلا في النداء من قبل أنّ كل اسم في النداء مرفوع معرفة، وذلك أنّه إذا قال: يا رجلُ ويا فاسقُ، فمعناه كمعنى يا أيها الفاسقُ ويا أيها الرجلُ، وصار معرفة لأنّك أشرت إليه وقصدت قصده، واكتفيت بهذا عن الألف))[20].

وأكَّد السِّيرافيّ قولَ سيبويه بقوله: ((والمنادى إذا كان مقصوداً إليه يعرَّف؛ كقولك: (يا رجلُ)، و(يا غلامُ)))[21]. فالنَّكرة هنا دخلت في باب التَّعريف من جهة النِّداء، لأنَّها قُصِدَت بالتَّعيين بواسطة أداة النِّداء، وهذا ما صرَّح به السِّيرافيّ بقوله: ((إنَّ حرف النداء يصيره إلى حال هذا ويغنيه عن الألف واللام)) [22].

ومسألة التَّعريف بالنِّداء مسألةٌ قارَّةٌ في فكر السِّيرافيّ النَّحويّ، فحين أراد أنْ يُبَيِّن تعريف المنادى النَّكرة المُضَاف أو ما اصطلح عليه بـ (الشَّبيه بالمُضاف) ذكر له طريقتين، فقال : ((و"يا ضاربا رجلاً" و"يا خيراً من زيد" إذا أردت بكل واحد منهما شيئاً بعينه فتعريفه من أحد وجهين: إما أنْ تناديه فتسميه بالمعنى الذي فيه فيصير معرفة، وذلك أنْ تقول لرجل هو ضاربٌ زيداً ولرجل هو خير من زيد: "يا ضارباً زيداً" و"يا خيراً من زيدٍ" فهذا تعريف يحدثه النداء. والوجه الآخر أنْ تسمي رجلاً بـ"ضارب زيدٍ" أو بـ" خير منك). وإنْ لم يكن على تلك الحقيقة فتقول: "يا ضارباً زيداً" و"يا خيراً من زيد" كما تقول: "يا قيس قفَّة) و"يا سعيد كُرْزٍ"))[23].

فمن وظائف النِّداء التَّواصليَّة في الأسماء المُنَادَاة تخليصُ المُنَادَى من حالة التَّنكير وإدخاله في حيِّز التَّعريف؛ ليكون معروفاً حتَّى يتمّ يُنادى وإن كان في صيغة النَّكرة؛ لأنَّه لا يُنادَى من كان منكوراً، فضلاً عن تنبيه المُخَاطَب وتخصيصه من بين جملة الحاضرين أثناء العملية التخاطبية، وهذا ما ذكره السيرافيّ بقوله، فقال: ((المنادى مختصّ؛ لأنك إنما تخصه فتناديه من بين من بحضرتك أو بقرب منك لأمرك أو نهيك أو خبرك، أو غير ذلك مما يخاطَب به الناس))[24].

ويرى الدّكتور خالد ميلاد أنَّ النِّداء يفيد تخصيص المُخَاطَب بالكلام الذي يأتي بعد التّنبيه لجعله معنيّاً به دون غيره، فضلاً عن إفادته توكيد المُخَاطَب في حال علم المُخَاطَب أنَّه المعني بالكلام ولكن في مناداته زيادة توكيد وتنبيه وإثارة، أو أنَّ ذلك أمرٌ يعود للمُنَادي في إقناع المُخَاطَب[25].

فالنِّداء في الاسم المعرفة وظيفته التَّعيين، وفي النَّكرة المقصودة وظيفته التَّعريف، وهذه الوظائف التَّي بَيَّنَها الباحثُ بقراءة النِّداء قراءة تواصليَّة قد اقتربت منها كثيراً نتائج بحوث المُحْدَثين في الدّراسات اللِّسانيَّة، إذ أكدَّت بعض الدِّراسات أنَّ نجاح العمليّة التَّواصليَّة تتوقف على معرفة المُخَاطَب وتعيينه؛ لأنَّه لا يمكن معرفة كنه الكلام على نحو صحيح ودقيق إلا بعد التَّعَرُّف على من وجه إليه الخطاب، والنِّداء هو أحد الوسائل التي يتم تعيين المُخَاطَب وتعريفه حتى يوجه إليه الكلام[26]. فالنداء له أهمية خاصة عند السيرافيّ من حيث البناء والوظيفة وأثره في الخطاب ووظيفته الأساسية القائمة على عطف المُخَاطَب عليك، بعد أنْ تعرِّفه أو تعينه ليوقع عليه ما يشاء من مؤثرات.

ويخرج النِّداء عن دلالته الحقيقيَّة المباشرة فيفيد وظائف تواصليَّة أخرى، ومنها:

1. **التَّوكيد،** من ذلك قول السِّيرافيّ: ((اعلم أنّ عَدْلَ "فُعَل" عن "فاعل" و"فَعَال" عن (فاعلة) معنًى مفهوم في كلامهم، يريدون به التوكيد والمبالغة، وذلك قولهم في النداء: يا فُسَقُ ويا فَساقِ للأنثى، ويا خُبَثُ، ويا خباثِ، ويا غُدَرُ، ويا غَدَارِ يؤكدون فيهما الخُبْث، والفسق، والغَدْر، وهي أسماءٌ معارفٌ بالنداء))[27].

2. **التنبيه،** من ذلك ما نقله عن الأصمعيّ في توجيه قول بعض الأبيات ومنها قول الشَّاعر:

يا مُرّ يا ابن واقع يا أنتا أنت الذي طَلَّقْتَ عامَ جُعتَا[28]((فقال: إنما أراد"يا" التي تقع في صدر الكلام للتنبيه، وكان تقديره : "يا مر يا ابن واقع أنت الذي طلقت" و"يا" زائدة ومثله ﴿**أَلاَّ يَسْجُدُوالله**﴾[سورة النمل، من الآية25]))[29]. ويؤكد السِّيرافيّ ما ذهب إليه الأصمعيّ بأنَّ ذلك متداول في كلام العرب، ذكره النحويون، وحكاه علماء العربيَّة[30] . وزاد السِّيرافيّ على ذلك قولهم : يا ويلُ لك ويا ويحُ لك، فهو لتنبيه الرَّجل ثُمَّ الدُّعاء عليه بالويل، ويدخل في ذلك.

3. **التَّعجُب،** ومن ذلك حديثه عن اللام المكسورة الدَّاخلة على غير المُنادَى ((كقولنا ""ياللِعجب و"يا لِلماء" كأنه نبّه بقوله: "يا غيرَ الماء للماء" و"يا غيرَ العجب لِلعجب"))[31].

ويبدو أنَّ معنى النِّداء الحقيقيّ المُبَاشِر باقٍ في هذه الوظائف التَّواصليَّة بيد أنَّه يستلزم معنىً آخرَ على سبيل المُجَاز إذ لا يقصد فيه حقيقة التَّنبيه وطلب الإقبال مثلما هو موجود في النِّداء المَحض الخالصّ لفعل النِّداء فلما نقل من النِّداء إلى معنى آخر مع بقاء معنى النِّداء فيه مجازاً أُلزم حرف النِّداء تنبيهاً على الحقيقة التَّي نقل منها[32].

ويبدو أنَّ الجمع بين معنى النِّداء والمعنى الجديد إنَّما هو تقوية للاثنين معاً ما دام السِّياق المقاميّ وقصديَّة المُنادِي(المُتَكَلِّم) قد أوجبت ذلك.

وتحدَّث السِّيرافيّ عن الاستغاثة والتَّعجُب وجعلهما فرعاً من النِّداء، وعرض لمسألة يلتمس منها عنايته بالوظيفة التَّواصليَّة التّي تؤدِّيها حركةُ لام الاستغاثة والتَّعجُب، فقال: ((أول ما يُسأل في هذا الباب أنْ يقال: لِمَ فُتِحَتْ هذه اللامُ واللامُ الخافضة إذا خَفَضَتْ اسما ظاهراً فهي مكسورة؟، فالجواب عن هذا أنْ يُقَال : إنّ أصل اللام الفتح، ثم كُسِرَت في الظاهر وبقى المَكْنِيُّ على الأصل؛ لأنْ لا تلتبس بلام الابتداء... ثم عرض دخولها في النداء على معنيين مختلفين؛ فاحتيج إلى الفصل بينهما، والمعنيان المختلفان أنك تُدْخِل اللام على من تستغيثُ به وهو منادى؛ كقولك: "يا لَزيد" و"يا لَلقوم" إذا استغثت بهم فناديتهم. وتُدْخِلها على من تستغيث له إذا دعوت قوماً إلى إعانته؛ كقولك: "يا لِلضعيف" و"يا لِلمظلوم"؛ كأنّه قال لمن بحضرته: (أدعوكم لِلضعيف ولِلمظلوم)))[33].

فحركةُ اللامِ هنا كانت مائزاً بين وظيفتين، إحداهما أنك تُنادي حتَّى تستغيث بأحد لك فتقول يا لَزيد)، فزيدٌ هنا مُسْتَغَاثٌ به، فناسبت الفتحة للام، والأُخرى أنَّك تنادي فتستغيث لغيرك، فقولك يا لِلفقراء، فإنك تدعو لإغاثة الفقراء، فصار الفقراء مستغاث لهم، وجاءت معها الكسرة.

وقد بيَّن السِّيرافيّ أصالة اللام المفتوحة في المُسْتَغَاث له؛ بكونها دخلت على منهاج ما تدخل عليه؛ لأَنَّ القائل إذا قال: (يا لِلمظلوم)، فمعناه: (أدعوكم للمظلوم)، أمّا المستغاث به فهو على غير قياس ذلك؛ لأَنَّ المُنَادَى لا يحتاج إلى لام؛ فصار تغيير لامه أَولى، فدخولها في غير موضعها أمر طارئ أوجب الفصل[34].

ويُشمُّ من هذا التَّأويل الوظيفة التَّواصليَّة التَّي تكمن في التَّفريق بين الاستغاثة من حيث المُستغاث به والمستغاث له، فيفهم المُخَاطَب هذين المعنيين من حركة اللام.

وتحكم الاستغاثة بعض المقاصد الكلاميَّة والمواقف السِّياقيِّة والأبعاد المقاميَّة فيعدل بها عن معناها الأصليّ إلى معنى آخر، من ذلك ما نقله السِّيرافيّ عن سيبويه في قول الشَّاعر:

يا لَبَكْرٍ أنشروا لي كُلَيباً يا لَبَكر أين أين الفرارُ[35]

فقال: ((وأمّا معنى قول سيبويه: (وهذا منه وعيد وتهدُّد – بعد "يا لبكر أنشروا لي كليباً"– فلأنَّ قوله: "أنشروا لي كليباً": أحيُوه، وهذا لا يكون منه؛ لأنّه كان قد قُتِل؛ أي: فكما لا سبيل إلى إحياء الموتى فكذا لا سبيل إلى النجاة منا ومن قَتْلِنا؛ فهذا منه وعيد وتَهَدُّد، وقوله: فأستغاث به ليُنْشِروا له كليباً، جعل "أَنْشِروا" في معنى اللام؛ كأنّه قال: "يا لَبكر لِلإنشار؛ أدعوكم للإنشار" كما نقول: "يا لَزيدٍ لعمرٍو"، وقوله: "يا لَبكر أين أين الفرارُ" كأنّه قال: "يا لبكر للفرار"، كأنه قال: "أدعوكم لِلفرار"، وهم الفُرَّار. فهذا معنى قوله: استغاث بهم لهم))[36].

فالوظائف التَّواصليَّة المُتَقَدِّمة من الوعيد والتَّهديد فضلاً عن معنى الاستغاثة والنِّداء حكمتها المواقف التَّواصليَّة، فالاستغاثة عامَّة أسلوب خطاب لا تتحقَّق فيه الوظيفة التَّواصليَّة إلاّ في موقفه الخاصّ، فهو نداء من يخلص من شدة أو يعين على مشقة. والسِّيرافيّ في شرحه لهذا البيت الشَّعري إنَّما يقدِّم لنا تفسيراً رائداً قائماً على الوظائف التَّواصليَّة، فهو قد أحسن في توجيه الدَّلالة التّي أشار إليها سيبويه قبله معتمداً على آليات تفسيريَّة ذات أبعاد تواصليَّة منها: قصديَّة المُتَكَلِّم، واستعانته بطبيعة المقام الذي قيل فيه فضلاً عن السِّياق الخارجيّ الذّي أحالنا إلى الحادثة التَّأريخيَّة التّي يدور حولها النَّصّ وهي (قتل كُلَيْب)، وكذلك توظيف مقتضى حال المُخَاطَب وهم (بنو بَكَر) فكان من مجموع هذه القواعد والآليات التَّفسيريَّة أن خرج لنا السِّيرافيّ بدلالة خاصّة لاسلوب النِّداء احتضن المعاني الآتية جميعاً: معنى النِّداء، ومعنى الاستغاثة به وله سويةً، ومعنى الوعيد والتهديد، ولعلَّنا نذكر هنا أنَّ اسلوب النِّداء كما عرضه السِّيرافيّ يكاد يختلف عمَّا سواه من أساليب الطَّلَب الأُخر كالأمر والنَّهيّ والاستفهام؛ فهو وإن خرج عمَّا يقتضي الظَّاهر المباشر فإنَّه لا يفقد دلالة النِّداء أبداً، بل يبقى النِّداء قائماً مُضَافاً إليه دلالة ثانويَّة يوجهها السِّياق المقاميّ وقصديَّة المُتَكَلِّم، أمَّا في الأساليب الطَّلبيَّة الأُخر فإنَّها في حالة خروجها عمَّا تقتضيه في الظَّاهر المباشر فإنَّها تفقد دلالتها الأصليَّة أمراً أو نفياً أو استفهاماً لتلبس الدَّلالة الجديدة.

وقد يَتَضَمَّن النِّداءُ دلالةً اخرى تدخل في باب النُّدبة بمجموعة من المواقف التَّواصليَّة؛ إذ وضع السِّيرافيّ قواعد عامة للندبة تحكمها الوظائف التَّواصليَّة، ومن تلك القواعد:

1. إنّ النُّدبة تكون في مقام التَّفَجُّع والتَّوَجُّع والحُزْن والبُكَاء، فقال: ((اعلم أنَّ الندبة إنما هي تفجُّعٌ وتوجع ونوح من حُزْن وغم، يلحقُ النادبَ على المندوب فَقْدُه؛ فيدعوه وإنْ كان يعلم أنّه لا يجيب؛ لإزالة الشدة التي لحقته لفقده))[37].

2. ولأنَّ المندوب ليس يسمع فاحتيج إلى غاية بُعد الصَّوت فاختير له الأصوات الدَّالة على البُعْد وهي (يا) في أوله، أو(وا) وفي آخره ألف المدّ، يقول السِّيرافيّ : ((ولمَّا كان المندوب ليس بحيث يسمع احتيج إلى غاية بُعد الصوت، فألزموا أوله "يا" أو "وا"، وآخره الألف في أكثر من الكلام؛ لأنَّ الألف أبعد للصوت، وأمكن للمدِّ))[38]، وفي حال ندبة المثنى والجمع أو المذكر والمؤنث جيء بإحدى أختي الألف، وهما الواو والياء، لأنّهما شريكتاه في المد واللين وبعد الصوت، ((فوقع الفصل باختلاف هذه الحروف بين التثنية والجمع، والمؤنث والمذكر، مع وجود المدِّ وبُعد الصوت فيها كلها))[39]. فمقام الإفراد يختلف عن مقام التَّثنية والجمع ومقام التَّذكير يختلف عن التَّأنيث، إلاّ أنّ حروف النُّدْبَة جمعتهما. ولم يرَ بعضُ الباحثين أنَّ تفسير السِّيرافي لهذه الظَّاهرة ملائماً؛ لأنَّ المندوب لا يسمع الدَّعوة أصلاً مهما بَعُد الصوت ومُدَّ[40]، وركن إلى تفسير رضي الدين الإستراباذيّ حين دعم كلامه بالجمع بين المندوب والمستغاث به لاقتضائهما بُعْد الصوت ومدّه ولامتناع التَّرخيم فيهما؛ فأرجع الرَّضيُّ مدَّ الصَّوت فيهما إلى ضمان حصول الغرض وامتناع التَّرخيم إلى عدم نقض الغرض، فقال : ((امتنع الترخيم في المستغاث الذي في آخره زيادة المدِّ... لأنَّ الزيادة تنافي الحذف، وكذا المندوب، لأنَّ الأغلب فيه زيادة مدّ في آخره لإظهار التفجّع وتشهير المندوب وغير المزيد فيه قليل نادر)) [41].

ومعلوم أنَّ المندوب لا يسمع سواء قرُب الصوت أو بعُد، ولكن يترجَّح لدى الباحث أنَّ مدّ الصوت في النُّدبة واختيار بعض الحروف الخاصَّة التي تَتمتَّع بخاصية الإطالة والمدّ في النُّطق جاءت لأغراض نفسيَّة تتلاءم مع طبيعة المُتكَلِّم النَّادب الذي يحاول إظهار ما تختزنه نفسُه من مصائب وآلام تجاه المندوب، فكلَّما طال الصَّوت وبعُد كان تفريغ هذه الشِّحنات أسرع وأريح، وهكذا يمكننا أنْ ندَّعي أنَّ السِّيرافيّ بتعليله مدّ الصَّوت في نهاية المُنْدوب إنَّما يعتمدُ بُعداً تواصليّاً نفسيّاً؛ إذ تنطلق ذات النَّادب المفجوع بفقد اعزائه صوب المندوب البعيد مكاناً وزماناً حيث ليس يسمع كما قال السِّيرافيّ ولإشباع هذه الأزمة النَّفسيَّة القاسية التّي ترفض الاعتراف بفراق الأحباب كان لابدَّ للنادب أنْ يمدّ صوته إلى أقصى ما يمكن في الفضاء ليحقق التَّواصل بهؤلاء المندوبين الأعزاء.

3. لا تكون النُّدبة إلا في مقام الفضل، والإحسان، والشَّجاعة، والقيام بأمر لا يقوم بمثله غير المندوب؛ حتَّى يكون عذراً في ظهور البُكاء والحُزْن، وتأسيساً على ذلك ((فهم محتاجون إلى تعظيم الأمر الذي حزنوا له وبكوا عليه، ليكون عذرًا. فلا يحسن أنْ يأتوا من اللفظ بما لا يُعْرف، وما ليس بعَلَمٍ موضوع له من الأسماء. وليس كل ما جاز نداؤه جاز ندبه ... وجملة ما يجوز ندبه من الأسماء: ما يكون عَلَماً، "كزيد" و"عمرو"، أو يكون في جملة الاسم ما يدل على فضيلة وشرف كقولهم: "وا مَن حفر بئر زمزماه"، "وا أمير المؤمنيناه"))[42].

من هذا نعلم أنَّ النُّدْبَة تلتقي مع النِّداء في التَّعريف والتَّعيين؛ لأنَّ غايتيهما التَّواصل وأمن اللَّبْس، فلا بدَّ في المُنَادَى أنْ يكون معروفاً مشخَّصاً بين النَّاس، والأمر نفسه مع المندوب فلا بد أنْ يكون مبيَّناً مَعْرُوفاً؛ لأنّ النُّدْبَة لا تحصل إلا في الأمر الجَلَل والخطير، وهذه الشُّروط غايتُها دقة التَّواصل واستمراره بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب. فشرطُ النُّدْبَةِ التَّعريفُ والشُّهْرَةُ للمندوب. وهذان الأمران يحصلان بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب في موقف تواصليّ معيَّن. إلا أنّ الشُّهرةَ أمرٌ نسبيٌّ؛ إذ قد تحصل في نفس المُتَكَلِّم (النادب)، وفي نفس غيره ليست أمراً يرجو تحقيقه، فنادب أبيه أو أمه يكون مشهوراً عنده، وقد لا يكون عند غيره[43].

4. منع حذف الأداة مع المندوب، يقول سيبويه ((والندبة تلزمها"يا" و"وا" لأنّهم يحتلطون ويدعون ما قد فات وبعد عندهم))[44]. وقد فسَّر السِّيرافيّ هذا القول تبعاً للسياق التّي تَرِدُ فيه النُّدْبَة، فقال: ((ومعنى قوله في باب الندبة لأنهم يحتلطون ويدْعُون ما قد فات وبَعُدَ عنهم: والاحتلاط الاجتهاد في الغضب والغيظ وكذلك أحلط في الأمر إذا اجتهد فيه))[45].

فالسِّياق الذي ترد فيه النُّدْبَة يَتَطَلَّب وجوب بقاء الأداة الخاصَّة به؛ لأَنَّ الحذف ينافي المطلوب من المندوب ويُفَوِّت الوظيفة التَّواصليّةَ المقصودة التّي تستلزم بنيات صوتيَّة ذات سمات معينة لها القدرة على توصيل الرِّسالة والتَّأثير في المُخَاطَب، وتعد الأداة في هذا الاسلوب من أهم هذه البنيات؛ فهي العنصر الفعَّال لإيصال الرِّسالة اللُّغوية كرفع الصَّوت وطرق توزيع النَّبْر وأنماط التَّنغيم، وهذا ما يتطلَّبه الموقف التَّواصليّ. فإنّ النُّدْبَة لا تتحقَّق وظِيفَتُها التَّواصليَّة إلاّ في سياقات معينة تقتضي اجتماعياً بنيات لغويَّة مُواءمَة.

ممَّا مرَّ يتضح أنَّ النُّدْبَة لا تُحَقِّق الوظائف التَّواصليَّة إلاّ في مَقامٍ مُعَيَّن يحيطه الحُزْن والتَّفَجُّع، ويَتَصِّف هذا المقام بشهرة المندوب وتعريفه بين النَّاس حتَّى يكون معلوماً يتحقَّق به التَّواصل، ولا بدَّ أنْ يُلازِم أداة فيها دلالة على بُعد الصَّوت ومدِّه؛ فضلاً عن عدم جواز حذفها؛ لأنّ لها وظيفة تواصليَّة وإبلاغيَّة هي إظهار التَّفَجُّع وتشهير المندوب والبقاء على ديمومة الرِّسالة اللُّغويَّة وإنجاحها.

الخاتمة:

شكل النداء أسلوباً نحوياً يحمل في طياته أبعاداً تداولية ووظائف تواصلية يستشفها القارئ في شرح السيرافي عن طريق ما يحمله من مقاصد يبتغيها المتكلمون، مع مراعاة أحوال المخاطب، والسياق والظروف المحيطة بالنداء، فحمل النداء الوظائف التواصلية التي تعنى بالإفهامية والمرجعية والندائية بشكل أساس، فضلاً عن خروج النداء لوظائف أخرى، مثل: التوكيد، والتعجب، والتنبيه، وألحق السيرافي بأسلوب النداء الاستغاثة والندبة؛ لأنَّهما يشكلان وظائف تواصلية تفهم من خلال السياق والمقاصد

الهوامش

(1)الأصول في النحو:401/1.

(2)شرح المفصل:1/ 423.

(3)الكتاب: 182/2. هذا الباب سقط من شرح السيرافي، وقد أثبته الاستاذ عبد السلام هارون في هامش الكتاب، فنقلته عنه: (الكتاب: 182/2).

(4)المصدر نفسه: الصفحة نفسها. هامش(1).

(5)التداولية عند العلماء العرب:40.

(6)ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: 221.

(7)شرح السيرافي: 47/8.

(8)ينظر: علم اللغة العام (قسم الأصوات): 30.

(9)البيت ليزيد بن مفرغ الحميري في معاني القرآن للفراء: 1/ 138.

(10)شرح السيرافيّ: 153/1.

(11)ينظر: شرح الرضي على الكافية: 413/1.

(12)ينظر: المقتضب: 235/3.

(13)ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: 676/2.

(14)ينظر: المعايير النحوية والمعايير الاتصالية: 158.

(15)ينظر: النداء بين النحويين والبلاغيين: 138(بحث).

(16)ينظر: الأصول في النحو: 329/1.

(17)شرح السيرافيّ: 151/1.

(18)ديوان الأعشى الكبير: 57.

(19)شرح السيرافيّ: 154/1-155.

(20)الكتاب: 197/2.

(21)شرح السيرافيّ: 49/8.

(22)الكتاب: 198/2 هامش (1).

(23)شرح السيرافيّ: 13/ 123.

(24)شرح السيرافيّ: 36/8

(25)ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: 163.

(26)ينظر:عناصر تحقيق الدلالة في العربية- دراسة لسانية: 147، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:19.

(27)شرح السيرافيّ: 12/ 27.

(28)البيت منسوب للأحوص وسالم بن دارة، ينظر: كتاب النوادر في اللغة: 163.

(29)شرح السيرافيّ: 152/1.

(30)ينظر: المصدر نفسه: 153/1.

(31)المصدر نفسه: 15/8.

(32)ينظر: شرح الرضي على الكافية: 408/1.

(33)شرح السيرافيّ: 11/8.

(34)المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(35)البيت منسوب لمهلهل بن ربيعة في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: 2/ 162.

(36)شرح السيرافيّ: 13/8.

(37)شرح السيرافيّ: 16/8.

(38)المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(39)شرح السيرافيّ: 22/8.

(40)ينظر: أصول تحليل الخطاب:694/2.

(41)شرح الرضي على الكافية: 396/1.

(42)شرح السيرافيّ: 30/8.

(43)ينظر: أصول تحليل الخطاب 694/2-695.

(44)الكتاب: 231/2.

(45)شرح السيرافيّ: 37/8.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أوّلا: الكتب المطبوعة

📖 **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، محمد الشّاوش، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط 1، 1421هـ-2001م.

📖 **الأصول في النحو**، محمد بن سهل أبو بكر بن السَّراج النَّحوي (316هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1417هـ-1996م.

📖 **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، الدكتور محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 1، 1432هـ-2011م.

📖 **الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة- دراسة نحوية تداولية**، الدكتور خالد ميلاد، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2002م.

📖 **التداولية عند العلماء العرب- دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي**، الدكتور مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005م.

📖 **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي (1093هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1418هـ-1997م.

📖 **ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)**، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر، (د . ت).

📖 **شرح الرضي على الكافية**، محمد بن الحسن المعروف بالرضي الاستراباذي (686هـ)، دراسة وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط 2، 1996م.

📖 **شرح كتاب سيبويه**، الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي (368هـ)، تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب وآخرين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2007-2009م.

📖 **شرح المفصَّل**، يعيش بن علي أبو البقاء المعروف بابن يعيش (643هـ)، المطبعة المنيرية.

📖 **علم اللغة العام (قسم الأصوات)**، الدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1975م.

📖 **عناصر تحقيق الدلالة في العربية- دراسة لسانية**، الدكتور صائل رشيد شريد، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2004م.

📖 **الكتاب، كتاب سيبويه**, عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر سيبويه (180هـ), تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخانجي، القاهرة, ط 3، 1408هـ-1988م.

📖 **كتاب النوادر في اللغة**، أبو زيد الانصاري، تحقيق: الدكتور محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت، ط 1، 1401هـ-1981م.

📖 **معاني القرآن**، يحيى بن زياد أبو زكريا الفرَّاء (207هـ)، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي وعبد الفتَّاح إسماعيل شلبي ، دار السرور، (د . ت).

📖 **المعايير النحوية والمعايير الاتصالية**، الدكتور محمود إبراهيم محمد مصطفى، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2014م.

📖 **المقتضب**, محمد بن يزيد أبو العباس المبرِّد (285هـ), تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة, لجنة إحياء التراث, المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, القاهرة, ط3, 1415هـ-1994م.

ثانياً: البحوث المنشورة

📖 **النداء بين النحويين والبلاغيين**، مبارك تريكي، حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد السابع، 2007م.